الأخلاق وأثرها في الإسلام

د/ عبدالرحمن بن ماهر عقيل

أستاذ مساعد في قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

(Umm Al-Qura University)

مقدمة :

الحمد لله على إحسانه والشكر له على توفيقه وامتنانه وأصلي وأسلم على الهادي البشير والسراج المنير وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد ، إن الأخلاق في الإسلام عنوان الفضائل كلها ومجمع المحاسن ، ولاتعلوا الأمم إلا بالأخلاق ولا ترتقي في سلم المجد والعلياء إلا بها ، ولذا فإن الحديث عن الأخلاق من آكد الأحاديث وأهمها وأولاها بالعناية والضبط والتوجيه سواء على الأفراد أو الدول والمؤسسات والجهات المعنية ،وهذا البحث يسلط الضوء على هذه القضية الجوهرية في مسيرة الأمة الإسلامية وعلو شأنها متسجيل مفاخرها في العالم ونسأل الله التوفيق والسداد والعصمة من الزيغ والضلال وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أهمية البحث :

إن باب الأخلاق من آكد أبواب الشريعة ومبانيها العظام وهو جزء لا يتجزأ من صميم هذا الدين الإسلامي وشريعته الغراء الخاتمة التي جعلها الله نساخة لكل الشرائع التي قبلها ، وشملت علاقة الفرد مع ذاته ومع ربه وعلاقته من المجتمع الداخلي الأسرة وعلاقته مع المجتمع الخارجي بدءا من حقوق الجار وانتهاء بحقوق غير المسلمين في الدولة المسلمة ، ولهذا الأمر جاءت أهمية موضوع الأخلاق وما يتعلق به من صلاح الأمة والمجتمع وسياسات الدول والأمم والشعوب والحضارات وسبل رقيها ومجدها وسؤددها .

أهداف البحث :

1- بيان أهمية باب الأخلاق في الدين وأنه من أسس هذا الدين القويم

2- بيان شمولية الأخلاق ، وأنها تشمل الفرد مع خاصته والعلاقة مع المجتمع

3- التركيز على أن مصدر الأخلاق هو الوحي المعصوم القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم

4- بيان الفرق بين النظام الأخلاقي في الإسلام والنظام الغربي الذي يقوم على قانون المصلحة والنفعية

منهج البحث :

انتهجت في البحث المنهج الاستقرائي والتحليلي ، وذلك في تبيين ما يتعلق بالتعريف بالأخلاق وبيان أهميتها في القرآن والسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، واعتمدت على كتب التفسير بالمأثور وعلى كتب الصحاح في الحديث كتب السنن وكتب شروح الحديث ثم الكتب التي تخص موضوع الأخلاق بصفة أخص ، مع الإلتزام بقواعد الضبط والتوثيق العلمي من حيث:

1- عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها بذكر اسم السورة ورقم الآية

2- تخريج الأحاديث الواردة في البحث من مصادرها الأصلية

3- التركيز على موضوع البحث وترك الاستطراد

الدراسات السابقة :

هناك عدد من الدراسات الوفيرة في باب الأخلاق من جوانب متعددة تتعلق بالنظر لمصدر الأخلاق وهو القرآن الكريم أو النظر إلى نموذج الأخلاق الكامل ، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مثل كتاب (نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم) وغيره من الكتب ، وهذا البحث

يقف على ما كتب في بعض الكتب مع التعليق والإضافة فيما يحتاج إليه البحث ويتطلبه المقام .

وقد قسمت بحثي للتمهيد ، وفيه التعريف بمصطلحات البحث ، وأربعة مباحث ،

المبحث الأول : أهمية الأخلاق في الإسلام

المبحث الثاني :اهتمام القرآن بالأخلاق

المبحث الثالث : اهتمام السنة النبوية بالأخلاق

المبحث الرابع : نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم القدوة الشاملة في الأخلاق

المبحث الخامس: خصائص الأخلاق الإسلامية

المبحث السادس : الأخلاق بين الجبلة والتطبع

الخاتمة ، وأبرز النتائج والتوصيات وأبرز المصادر والمراجع

الأخلاق الإسلامية من عناوين تميز الأمة الإسلامية عن سائر أمم الأرض فهو علامة فارقة واضحة بين المسلمين وغيرهم من أمم الأرض ، ولا غرو في ذلك فالقرآن الكريم يحث على ذلك في كثير من الآيات والسنة النبوية زاخرة بالحديث عن الأخلاق ، وقبل الشروع في ذلك يحسن التعريق بالأخلاق :

الأخلاق لغة :جمع خلق و الْخُلُقِ، السَّجِيَّةُ، لِأَنَّ صَاحِبَهُ قَدْ قُدِّرُ عَلَيْهِ. وَفُلَانٌ خَلِيقٌ بِكَذَا، وَأَخْلِقْ بِهِ، أَيْ مَا أَخْلَقَهُ، أَيْ هُوَ مِمَّنْ يُقَدَّرُ فِيهِ ذَلِكَ. [1]خُلُق: مجموعة صفات نفسية وأعمال الإنسان التي توصف بالحُسْن أو القُبْح [2]

اصطلاحا :

الأخلاق:

الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية ولا روية. وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه وكالذي يضحك ضحكا مفرطا من أدنى شيء يعجبه وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله، ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا[3].

وقيل حال للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خير أو شر من غير حاجة إلى فكر وروية.

وعلم الأخلاق: علم موضوعه أحكام قيمية تتعلّق بالأعمال التي توصف بالحسن أو القبح.[4]

[1] مقاييس اللغة 2 ص 214

[2] مجمع اللغة العربية 1 ص 688

[3] تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص 41

[4] معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية 1 ص 109

تعريف الأثر:

الأثر لغةً: بقيَّةُ الشيء، وما بَقِيَ من رسمه وصفته، وجمعُه: آثار، ومنه: أثَّرَ في الشيء؛ أي: تَرَكَ له أثَرًا، ومنه: أُثْرَةُ العِلمِ: لروايته وذِكره[1].

الأَثَر اصطلاحًا: هو نتيجةُ الشيء الحاصلِ وأثَرُه، وهو علامة على المقصود وحاصله، وما يدلُّ على حدوثه ووجوده[2].

وفي نفس هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾ (يس:12).

وهذه الكلمة في هذه الآيةِ الكريمةِ، تفيد جملةً من المعاني؛ فهي الآثار التي قدَّمُوها حالَ حياتِهم من خيرٍ أو شَرٍّ، وما سنوه وتركوا أثرَه للناس؛ إمَّا خيرًا، وإمَّا شرًّا، فآثارُ المرءِ هي ما تبقى وتمكث بعد موتِه، وهذه المعاني تتَّسقُ تمامًا مع المعنى اللُّغوي في الأثر، وما يُترَك ويبقي على الأشياء، وعلى حاصل العمل ونتيجته[3].

وبهذه التعريفاتِ اللُّغويَّة والاصطلاحيَّة، يتَّضح لنا أنَّ الأثَرَ عنوانٌ واضح في إبقاء الأمرِ على سلفِه وعهدِه، وهذا يدلُّ على عُمقِ الأثَر وإبقائه للمعنى الأول، وتجدُّدِه

---

[1] ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، ج4، ص5، والفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، ص341.

[2] ينظر: الجرجاني، علي بن محمد، **التعريفات**، ص9، و البركتي، محمد عميم، **التعريفات الفقهية**، ص 16، وعبد المنعم، محمود عبد الرحمن، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، ج1، ص57.

[3] ينظر: الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان**، ج20، ص497، والقرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، ج15، ص12، والرازي، محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب**، ج26، ص258، والبغوي، الحسين بن مسعود، **معالم التنزيل**، ج7، ص9.

فيه؛ فالأثَرُ لا يزول وإنَّما يتجدَّدُ كلَّما حصل المقصودُ الأوَّلُ؛ فمثلًا: كلَّما صلَّى الإنسانُ كلَّما تجدَّدت معه الآثارُ وزادت، وظهرت نتائجُها واضحةً بيِّنةً مشاهَدةً للعِيَان كالشَّمس في رابعةِ النَّهارِ.

المبحث الأول : أهمية الأخلاق في الإسلام :

وبعد هذه التعاريف من العلماء للأخلاق ندرك أهمية هذا الأمر وأن الأخلاق ترتبط ارتباطا أكيدا مع النفس فالنفس إذا لم تعود وتربى على الأخلاق الحسنة فإن مداواة الإنسان لها سيكون صعبا ، وموضوع الاخلاق من أهم المواضيع الذي يجب أن يطرق دائما وأن يذكر به في كل الميادين وعلى كافة الأصعدة ، فأكثر مشكلات العالم مدارها على نقص في الأخلاق ، ولو أن الناس عرفوا هذا لقلت كثير من المشكلات بين الناس ، ولو تأمل الإنسان في العهد الأول عهد النبي صلى الله وسلم وأصحابه وكيف كانت المشكلات في المجتمع قليلة بل كانت معدومة إلى حد ما ، ويقول عن هذا الصدد الدكتور الشلبي :

إنعاش أخلاق الإسلام:

ومن ملامح المجتمع الإسلامي أن تبرز فيه أخلاق الإسلام، فلا يسخر مسلم من مسلم، ولا يوجد فيه حسد ولا كبر ولا تجسس ولا غش، ولا رشوة ولا شهادة زور ولا عصبية وفي القرآن الكريم وأحاديث الرسول نهي ووعيد لمن تخلق بهذه الأخلاق، ووعد بالخير لمن تخلق بصفات الخير تلك التي ألممنا بها وتلك التي لم نذكرها هنا لشهرتها، فالخلق الكريم يعرفه الناس، ويعرفون كذلك الخلق الردئ، وليس من الإسلام في شيء أن يبعد المسلم عن الضوء ويعيش في الظلام [1]

[1] موسوعة النظم 7 ص 317

وهذا الكلام من الشلبي في غاية الأهمية حيث أن من الملامح الرئيسية في المجتمع المسلم أن تسود فيه الاخلاق الإسلامية ، أن يكون الشعار بين المؤمنين الخلق

المبحث الثاني :

اهتمام القرآن بالأخلاق

وإذا نظرنا نظرة فاحصة على الآيات في القرآن الكريم لوجدنا التقريرات القرآنية الكثيرة لهذا الأمر يقول الحق تبارك وتعالى واصفا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم (وإنك لعلى خلق عظيم) القلم 4

وقوله تعالى عن وجوب الوفاء بالعهد (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلا) الإسراء 34

ويقول تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) المائدة 1 ويقول الحق جل وعلا (والذين هم لأماناتهم وعدهم راعون) المعارج 32

ويقول ربنا عن خلق مهم وهو أن لا يتكلف الإنسان ويتقول من دون علم (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) الإسراء 36

بل حتى أتى النهي القرآني أن يختال الإنسان في مشيته (ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) الإسراء37

بل شملت تعاليم القرآن موضوع الإسراف في المال وكيف أن له تأثيرا كبيرا على خلق الإنسان قال تعالى (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ

تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا }الإسراء: 26-29]

وقال في آيات عظيمة عن مبدأ مهم في الأخلاق وهو أن الناس سواسية قال تعالى {(10) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات: 10-13]

بل جمع الله صفات المؤمنين ورصد لهم الفلاح في سورة المؤمنين يقول تبارك وتعالى{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)} [المؤمنون: 1 - 11]

وقال تبارك وتعالى في آيات أخرى من سورة الأنعام يبين ماهي المحاذير التي يجب على المؤمنين أن يتجنبوها (قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ

وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) الأنعام 151-152

قال الإمام السعدي في تأويل الآية :

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {قُلْ} لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله. {تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} تحريما عاما شاملا لكل أحد، محتويا على سائر المحرمات، من المآكل والمشارب والأقوال والأفعال. {أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} أي: لا قليلا ولا كثيرا.

وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أويصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحدا، مخلصا لله في جميع أحواله، فهذا حق الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا.

ثم بدأ بآكد الحقوق بعد حقه فقال: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} من الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق.

{وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ} من ذكور وإناث {مِنْ إِمْلاقٍ} أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجودا في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا منهيين عن قتلهم في هذه الحال، وهم أولادهم، فنهيهم عن قتلهم لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم، من باب أولى وأحرى.

{نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. {وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ} وهي: الذنوب العظام المستفحشة، {مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [ص:280] أي: لا تقربوا الظاهر منها والخفي، أو المتعلق منها بالظاهر، والمتعلق بالقلب والباطن.

والنهي عن قربان الفواحش أبلغ من النهي عن مجرد فعلها، فإنه يتناول النهي عن مقدماتها ووسائلها الموصلة إليها.

{وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ} وهي: النفس المسلمة، من ذكر وأنثى، صغير وكبير، بر وفاجر، والكافرة التي قد عصمت بالعهد والميثاق. {إِلا بِالْحَقِّ} كالزاني المحصن، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

{ذَلِكُمْ} المذكور {وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} عن الله وصيته، ثم تحفظونها، ثم تراعونها وتقومون بها. ودلت الآية على أنه بحسب عقل العبد يكون قيامه بما أمر الله به.

{وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ} بأكل، أو معاوضة على وجه المحاباة لأنفسكم، أو أخذ من غير سبب. {إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} أي: إلا بالحال التي تصلح بها أموالهم، وينتفعون بها. فدل هذا على أنه لا يجوز قربانها، والتصرف بها على وجه يضر اليتامى، أو على وجه لا مضرة فيه ولا مصلحة، {حَتَّى يَبْلُغَ} اليتيم {أَشُدَّه} أي: حتى يبلغ ويرشد، ويعرف التصرف، فإذا بلغ أشده، أُعطي حينئذ مالُه، وتصرف فيه على نظره.

وفي هذا دلالة على أن اليتيم -قبل بلوغ الأشُد- محجور عليه، وأن وليه يتصرف في ماله بالأحظ، وأن هذا الحجر ينتهي ببلوغ الأشُد.

{وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ} أي: بالعدل والوفاء التام، فإذا اجتهدتم في ذلك، فـ {لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا} أي: بقدر ما تسعه، ولا تضيق عنه. فمَن حرَص على الإيفاء في الكيل والوزن، ثم حصل منه تقصير لم يفرط فيه، ولم يعلمه، فإن الله عفو غفور (1) .

وبهذه الآية ونحوها استدل الأصوليون، بأن الله لا يكلف أحدا ما لا يطيق، وعلى أن من اتقى الله فيما أمر، وفعل ما يمكنه من ذلك، فلا حرج عليه فيما سوى ذلك.

{وَإِذَا قُلْتُمْ} قولا تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلمون به على المقالات والأحوال {فَاعْدِلُوا} في قولكم، بمراعاة الصدق في من تحبون ومن تكرهون، والإنصاف، وعدم كتمان ما يلزم بيانه، فإن الميل على من تكره بالكلام فيه أو في مقالته من الظلم المحرم.

بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبُعدها منه.

وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين، في لحظه ولفظه. {وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا} وهذا يشمل العهد الذي عاهده عليه العباد من القيام بحقوقه والوفاء بها، ومن العهد الذي يقع التعاقد به بين الخلق. فالجميع يجب الوفاء به، ويحرم نقضه والإخلال به.

{ذَلِكُمْ} الأحكام المذكورة {وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ما بينه لكم من الأحكام، وتقومون بوصية الله لكم حق القيام، وتعرفون ما فيها، من الحكم والأحكام.[1]

وقال تعالى جامعا صفات عباد الرحمن (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا(76) الفرقان 63-76

وقال الإمام السعدي في كلام جميل عن تأويل صفات عباد الرحمن :

{63 - 77} {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

[1] تيسير العزيز الرحمن في تفسير كلام المنان ص 280

اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} إلى آخر السورة الكريمة.

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} وعبودية لألوهيته وعبادته ورحمته وهي عبودية أنبيائه وأوليائه وهي المراد هنا ولهذا أضافها إلى اسمه " الرحمن " إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم {يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا} أي: ساكنين متواضعين لله والخلق فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده. {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ} أي: خطاب جهل بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف، {قَالُوا سَلامًا} أي: خاطبوهم خطابا يسلمون فيه من الإثم ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله. وهذا مدح لهم، بالحلم الكثير ومقابلة المسيء بالإحسان والعفو عن الجاهل ورزانة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال.

{وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} أي: يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له كما قال تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} .

{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ} أي: ادفعه عنا بالعصمة من أسبابه ومغفرة ما وقع منا مما هو مقتض للعذاب. {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} أي: ملازما لأهلها بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه.

{إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب، وليتذكروا منة الله عليهم، فإن صرف الشدة بحسب شدتها وفظاعتها يعظم وقعها ويشتد الفرح بصرفها.

{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا} النفقات الواجبة والمستحبة {لَمْ يُسْرِفُوا} بأن يزيدوا على الحد فيدخلوا في قسم التبذير وإهمال الحقوق الواجبة، {وَلَمْ يَقْتُرُوا} فيدخلوا في باب البخل والشح {وَكَانَ} إنفاقهم {بَيْنَ ذَلِكَ} بين الإسراف والتقتير {قَوَامًا} يبذلون في الواجبات من الزكوات والكفارات والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي من غير ضرر ولا ضرار وهذا من عدلهم واقتصادهم. {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء مقبلين عليه معرضين عما سواه.

{وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ} وهي نفس المسلم والكافر المعاهد، {إِلا بِالْحَقِّ} كقتل النفس بالنفس وقتل الزاني المحصن والكافر الذي يحل قتله.

{وَلا يَزْنُونَ} بل يحفظون فروجهم {إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ} أي: الشرك بالله أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق أو الزنا فسوف {يَلْقَ أَثَامًا} ثم فسره بقوله: {يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ} أي: في العذاب {مُهَانًا} فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت لا شك فيه وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة لكونها إما شرك وإما من أكبر الكبائر.

وأما خلود القاتل والزاني في العذاب فإنه لا يتناوله الخلود لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار ولا يخلد فيها مؤمن

ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة لأنها من أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان والزنا فيه فساد الأعراض.

{إِلا مَنْ تَابَ} عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال وندم على ما مضى له من فعلها وعزم عزما جازما أن لا يعود، {وَآمَنَ} بالله إيمانا صحيحا يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات {وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا} مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله.

{فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانا ومعصيتهم طاعة وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية.

وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه فعددها عليه ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال:: يا رب إن لي سيئات لا أراها هاهنا " والله أعلم.

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا} لمن تاب يغفر الذنوب العظيمة {رَحِيمًا} بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم ثم وفقهم لها ثم قبلها منهم.

{وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} أي: فليعلم أن توبته في غاية الكمال لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه فليخلص فيها وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها ليقدم على من تاب إليه فيوفيه (1) أجره بحسب كمالها.

{وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} أي: لا يحضرون الزور أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله والجدال الباطل والغيبة والنميمة والسب والقذف والاستهزاء والغناء المحرم وشرب الخمر وفرش الحرير، والصور ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور فمن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخلة في قول الزور تدخل في هذه الآية بالأولوية، {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ} وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية ككلام السفهاء ونحوهم {مَرُّوا كِرَامًا} أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه ورأوا أن الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة فربأوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ} إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يكرمون أنفسهم عنه.

{وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ} التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها، {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} أي لم يقابلوها بالإعراض عنها والصمم عن سماعها وصرف النظر والقلوب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها كما قال تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ} يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذانا سامعة وقلوبا واعية فيزداد بها إيمانهم ويتم بها إيقانهم وتحدث لهم نشاطا ويفرحون بها سرورا واغتباطا.

{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا} أي: قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات، {وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ} أي: تقر بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم عرفنا من هممهم وعلو مرتبتهم أنهم لا تقر أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم عالمين عاملين وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم فإنه دعاء لأنفسهم لأن نفعه يعود عليهم ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم فقالوا: {هَبْ لَنَا} بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين لأن بصلاح من ذكر يكون سببا لصلاح كثير ممن يتعلق بهم وينتفع بهم.

[ص:588]

{وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكمل من عباد الله الصالحين وهي درجة الإمامة في الدين وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم يقتدى بأفعالهم، ويطمئن لأقوالهم ويسير أهل الخير خلفهم فيهدون ويهتدون.

ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة –درجة الإمامة في الدين– لا تتم إلا بالصبر واليقين كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَاهم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة الله وعن معصيته وأقداره المؤلمة ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين، خيرا كثيرا وعطاء جزيلا وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل.

ولهذا، لما كانت هممهم ومطالبهم عالية كان الجزاء من جنس العمل فجازاهم بالمنازل العاليات فقال: {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا} أي: المنازل الرفيعة والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهى وتلذه الأعين وذلك بسبب صبرهم نالوا ما نالوا كما قال تعالى: {وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا

صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} ولهذا قال هنا {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا} من ربهم ومن ملائكته الكرام ومن بعض على بعض ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل: أن الله وصفهم بالوقار والسكينة والتواضع له ولعباده وحسن الأدب والحلم وسعة الخلق والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم ومقابلة إساءتهم بالإحسان وقيام الليل والإخلاص فيه، والخوف من النار والتضرع لربهم أن ينجيهم منها وإخراج الواجب والمستحب في النفقات والاقتصاد في ذلك – وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب أولى– والسلامة من كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته والعفة عن الدماء والأعراض والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها بأنفسهم وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم وكمالهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء، في الدعاء الذي ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم لأن من حرص على شيء ودعا الله فيه لا بد أن يكون متسببا فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم وهي درجة الإمامة والصديقية.

فلله ما أعلى هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس وأطهر تلك القلوب وأصفى هؤلاء الصفوة وأتقى هؤلاء السادة"

ولله، فضل الله عليهم ونعمته ورحمته التي جللتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل.

ولله، منة الله على عباده أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هيئاتهم وبين لهم هممهم، وأوضح لهم أجورهم، ليشتاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي من عليهم وأكرمهم الذي فضله في كل زمان ومكان، وفي كل وقت وأوان، أن يهديهم كما هداهم ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم.

فاللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا نفعا ولا ضرا ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير إن لم تيسر ذلك لنا، فإنا ضعفاء عاجزون من كل وجه.

نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين وكلتنا إلى ضعف وعجز وخطيئة، فلا نثق يا ربنا إلا برحمتك التي بها خلقتنا ورزقتنا وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة وصرفت عنا من النقم، فارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك فلا خاب من سألك ورجاك.[1]

وفيما ذكر من الآيات العظيمة وكلام العلماء الأجلاء عن الآيات التي تكلمت على جملة من الأخلاق السامية التي أكد عليها القرآن وأشار إليها في مواضع كثيرة فوائد جليلة ، فلو تأمل المرء كيف أن هذا الدين الإسلامي دين الاخلاق وكيف أنه يأمر بمكارم الأخلاق لبدت له ثمار يانعة على الفرد والجماعة، فمن ذلك أن يشعر ويتيقن المسلم أن دينه أعظم دين عرفته البشرية لأنه دين الأخلاق السمحة الجميلة،

ويبدأ المسلم بتعلم هذه الاخلاق واكتسابها ومحاولة تطبيقها في واقع الحياة لأن النفس في بادئ الأمر قد يصعب عليها التمسك بالأخلاق فإذا صارت الأخلاق لها لذة كلذة الطعام والشراب والنوم ، صار الإنسان لا يتلذذ إلا بممارسة هذه الأخلاق

[1] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص 586-587

العالية وتلك مرتبة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم ومن صابر مع نفسه ، أن الأخلاق الإسلامية مفطور عليها أصحاب الفطر السليمة فهم لا يجدون أي غضاضة في تطبيق الأخلاق الإسلامية ، الأخلاق الإسلامية في كل الظروف وفي كل الأحوال لا تختص بطائفة دون غيرها بل الجميع مأمور بها ومأمور بتطبيقها ، الناظر في الأوامر القرآنية يلحظ التشديد في من يتنكب عن الأخلاق ويصل لمستويات منحطة فالشريعة تريد من الجميع أن يتمسكوا بأخلاقهم حتى لو تعرضوا للأذى فالعفو والصفح أجمل ما يكون عند المقدرة على الرد وهذا المعنى يدل على السمو العالي في نفس المؤمن التي ترتفع عن الحظوظ الدنيية وتحط رحالها في سماء الاخلاق الحميدة ، وفي إكثار القرآن من ذكر الأخلاق والأمر بها رد على من اتهم رسالة الإسلام انها تدعو للعنف وغير ذلك فالناظر المنصف في الآيات القرآنية يجد مدى الأخلاق الإسلامية العظيمة حتى مع الكافر ، وفي أخلاق القرآن الاستقلالية التامة عن ما ورثه الإنسان من عادات الآباء والأجداد الخاطئة التي تربى عليها الإنسان فيجد القرآن يأمره بمخالفة لك والذهاب للمعين الصافي في الأخلاق ، والاخلاق في القرآن نبراس للأمة أن يسيروا عليها وأن يجعلوها دستورا في حياتهم ، وأن لا يتنكبوا عنها البتة ، إن أموامر القرآن في موضوع الأخلاق أموامر كثيرة تحتاج من يتأملها ويتدبرها ويعمل بها ويلزم بها نفسه وأسرته ، ولو أن المجتمعات تخلصت من الاخطاء التي دأبت عليها واتجهت بكليتها إلى أخلاق القرآن لقلت المشكلات في المجتمع ولصار حال المجتمع مجتمعا متعاونيا متآخيا ، مجتمع تسوده المحبة بين أفراده الميزان الوحيد للتفاضل فيه ليس العرق ولا النسب ولا الجاه ولا الغنى ولا المال وإنما الدين وهذه الحقيقة القرآنية تخالف مقررات الجاهلية مخالفة تامة وتفتح ميدان التنافس الحق وهو التنافس في الحق والبر والتقوى .

المبحث الثالث : اهتمام السنة النبوية بالأخلاق

وإذا نظرنا في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم السنة النبوية الروضة الغناءة لوجدنا كثيرا من الأحاديث فيها الأمر بالخلق ، بل أكد الحبيب صلى الله عليه وسلم أنه بعث لأجل ذلك

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»[1]

والحبيب صلى الله عليه وسلم هو اللبنة الجميلة الذي بوجوده اكتمل البناء الجميل

فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَثَلِي، وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَرَجُلٍ بَنَى دَارًا، فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ وَيَقُولُونَ: لَوْلاَ مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ "[2]

ومما يدل على أن الاخلاق ترتبط ارتباط وثيقا بالعقيدة التي يعتقدها الإنسان وأنه لا انفكاك بينهما البتة

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[3]

بل حتى الكلمة السهلة التي لا تكلف المرء شيئا له بها أجر، وربما يزحزح عن النار بسبب تلك الكلمة الطيبة .

[1] الأدب المفرد مخرجا ص 104 قال الألباني صحيح باب حسن الخلق
[2] صحيح البخاري 4 ص 186 باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم
[3] صحيح البخاري 8 ص 11باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»[1]

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّارَ، فَتَعَوَّذَ مِنْهَا وَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ النَّارَ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا وَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ، – قَالَ شُعْبَةُ: أَمَّا مَرَّتَيْنِ فَلاَ أَشُكُّ – ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»[2]

بل الأخلاق الإسلامية أمرنا بها حتى في تعاملنا مع اليهود ومن يناصبوننا العداوة

فعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ "[3]

وهنا حديث يدل على التسامي في التعامل الإسلامي بالأخلاق وهو حديث بول الأعرابي ولقد اخرج منه علماء السنة فوائد جمة وكثيرة .

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي المَسْجِدِ، فَقَامُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تُزْرِمُوهُ» ثُمَّ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَصُبَّ عَلَيْهِ[4]

ودأب النبي صلى الله عليه وسلم يدل على أنه طاهر مطهر في أقواله وأفعاله

[1] صحيح البخاري 8 ص 11 باب طيب الكلام
[2] صحيح البخاري 8 ص 11 باب طيب الكلام
[3] صحيح البخاري 8 ص 11 باب الرفق في الامر كله
[4] صحيح البخاري 8 ص 12 باب الرفق في الأمر كله

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: " لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا»[1]

وعَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ يَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ. قَالَ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ» قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ»[2]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّابًا، وَلاَ فَحَّاشًا، وَلاَ لَعَّانًا، كَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا عِنْدَ المَعْتَبَةِ: «مَا لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ»[3]

وعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: «بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابْنُ العَشِيرَةِ» فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَائِشَةُ، مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ»[4]

بل العرب تعرف خلق الرسول صلى الله عليه وسلم لمجرد المقابلة ونحن المسلمون مأمورون بالتأسي به .

[1] صحيح البخاري 4 ص 189باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم
[2] صحيح البخاري 8 ص 12 باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشا ولامتفحشا
[3] صحيح البخاري 8 ص 13 باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا
[4] صحيح البخاري 8 ص 13 باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ» وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ، لَمَّا بَلَغَهُ مَبْعَثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لِأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَى هَذَا الوَادِي فَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ، فَرَجَعَ فَقَالَ: «رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ»[1]

أما عن تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع خادمه أنس فهو العجب العجاب ، وعادة يحصل احتكاك كثير مع الخادم بحكم القرب والخلطة وشدة الحاجة له ، ومع ذلك فلقد ضرب الصادق المصدوق بأبي هو وأمي مثالا للبشرية في ذلك .

فعن أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، وَلاَ: لِمَ صَنَعْتَ؟ وَلاَ: أَلَّا صَنَعْتَ "[2]

وعَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ مِثْلُهَا، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَذَكَرَ أَنَّهُ سَابَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَيَّرَهُ بِأُمِّهِ، قَالَ: فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ وَخَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ عَلَيْهِ»[3]

ولقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا من الأخلاق في حديثه لصاحبته وهي من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام

[1] صحيح البخاري 8 ص 13 باب حسن الخلق والسخاء

[2] صحيح البخاري 8 ص 14 باب حسن الخلق والسخاء

[3] صحيح مسلم 3 ص 1283 باب إطعام المملوك مما يطعم وإلباسه مما يلبس

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»[1]

وهنا مثال على عظيم خلق التواضع والتنزل للناس من شخص الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام

فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: «إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ، لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ»[2]

وبعد هذه الروضة الغناءة التي تفيأنا ظلالها يدرك الإنسان حقائق عدة ويجمع زهورا جميلة ساحرة اللون طيبة الرائحة وهي سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه يجب على كل من يدين بلا إله إلا الله أن يقف وقفة المتأمل في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وأن يتمسك بها ، لأن العالم اليوم يحتاج لقدوة تنير له الطريق والظلام الذي يعيشه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم تحققت فيه القدوة الكاملة والأسوة التامة ، فليت الامة الإسلامية تنكب على سيرته وعلى سنته تأخذ منها العبر والأحكام والأخلاق والفضائل ،

المبحث الرابع :

نبينا محمد صلى الله عليه وسلم القدوة الشاملة في الأخلاق

[1] صحيح البخاري 8 ص 19 باب النهي عن التحاسد والتباغض
[2] صحيح البخاري 8 ص 20 باب الكبر

وفي الاحاديث الواردة آنفا أمثلة بسيطة في مدى الكمال في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، فهي بحق دستور ومنهج للحياة يختاجه كل أحد حتى يسعد سعادة دائمة وحتى يعيش بطمأنينة عالية ، ولو نظر الإنسان لتعامل الحبيب صلى الله عليه وسلم مع الجيران وكيف هو سمو الأخلاق ثم نظر لحاله وتقصيره الكبير في ذلك ، ولو نظر الإنسان في تعامله صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب ورأى كيف هو عليه الصلاة والسلام يحسن إليهم ويريهم صورة الإسلام الكاملة في شخصه عليه الصلاة والسلام من دون تنازلات عن كثير من الأحكام كما يفعل بعض المنهزمين اليوم في تعاملاتهم مع أهل الكتاب ، ولو نظر الإنسان في تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل بيته وكيف كان خير زوج لزوجاته فأعماله العظيمة والمسؤولية العظيمة التي تحملها ومع ذلك تجده يتبسط مع أهله ويجلس معهم الأوقات الطويلة في درس عظيم للمتزوجين في كيفية التعامل مع النساء ، ولو أن البيوتات تدارست سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع نسائه لاختفت كثير من المكلات الأسرية ولخلت أروقة المحاكم من المشكلات الزوجية التي تغص بها المحاكم في هذا الزمن ، ولو تأمل الإنسان تعامله عليه الصلاة والسلام مع الأطفال وكيف يربي فيهم الاخلاق العالية والتربية الإسلامية الصحيحة لوجد الدستور الكامل في تنشئة الاطفال على الهدى والخير والصلاح ، وإن المتفيء لظلال السنة المحمدية يرأى بعينيه الكمال في الاخلاق في شخص الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام وكفى بالأمر أن الملك الحق المبين الله جل جلاله شهد بذلك قال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) القلم 4

بل أمر الله تبارك وتعالى بأن يتأسى الناس بهذا الرسول الكريم قال تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) الأحزاب 21

ويقول الشلبي عن الأخلاق وكيف أنه من الواجب أن تكون عامة للفرد والجماعة :

الأخلاق الإسلامية تراعي بين الأفراد وبين الجماعات:

وقد عني الإسلام عناية كبيرة بتشجيع صفات الحب والرحمة والوفاء بالعهود والعدالة 000 بين الأفراد، وقد جاء في ذلك حشد هاما من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول، ولكن الذي نريد إثبتاته هنا هو أن الإسلام يُلزم أن تقوم هذه الصفات ليس فقط بين الفرد والفرد بل أيضا بين الجماعة والجماعة وبين الدولة والدولة، فالصفات التي فرضها الإسلام تنظِّم علاقة الآحاد، وتنظم أيضا علاقات الجماعات والدول، فالإسلام يُعنى بالوحدة الإنسانية ويهتم بكل بني الإنسان، وتقرر آية سورة الحجرات أن الناس يعودون إلأى أصل واحد، وأن تشعبهم إلى فرق وقبائل قُصِد به خلق جو للتاعرف والمودة، ولم يكن للفرقة والخلاف، وذلك ما يفهمه المفسرون من قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم)الحجرات 13 وعلى النمط سار الرسول والسلف الصالح 0[1]

وهذه القضية من الأهمية بمكان ومن خصائص ما تكلم الشلبي عن موضوع الأخلاق ، وهي أن تكون الاخلاق منتشرة بين الجماعات وأن ترتفع من نطاق الفرد حتى تشمل نطاق الجماعة ، وهذا المار أكد عليه القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم في أكثر من آية وأكثر من حديث فالقرآن دائما يربط المسلم بأخوانه في أفراحهم وفي مصائبهم

[1] موسوعة النظم 9 ص 26

وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم تجد مبدأ الترابط واضحا جليا قال تبارك وتعالى (إنما المؤمنون إخوة) الحجرات 10 وفي هذا الأمر حديث جليل فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى [1]

المبحث الخامس : خصائص الاخلاق الإسلامية :

ومن القضايا المهمة خصائص الأخلاق في الإسلام ، حيث أن الأخلاق الإسلامية ذات خصائص مهمة تميزها عن كثير من الأخلاق الأخرى، ومن أعظم الخصائص أنها مرتبطة ارتباطا كاملا بالدين الحنيف ، قال الشلبي مبينا هذا الأمر:

لا أخلاق بدون دين:

ويرتبط بالإيمان بالله أيضا اتباع الأخلاق الإسلامية التي ألزم الإسلام المسلم أن يتخَّلق بها , ولا يتمَّ كمال الدين إلا بإتباع هذه الأخلاق التي وردت بالقرآن الكريم كالأمانة والوفاء بالوعد والعهد , وكالمساواة , والعدل , وعدم الغيبة والنميمة والرشوة 0

ويقرّر العلماء أنه لاتوجد أخلاق سليمة بدون دين , فالبشر عجزوا عن الإتفاق على الأخلاق الفاضلة والأخلاق الرديئة , وأباحت المدنيَّات الغربية الإستعمار والإستيلاء

[1] صحيح مسلم 4 ص 1999باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم

على ثروات الدول الضعيفة , كما تفشىَّ النظام الطبقي , ولم تقبل هذه المدنيات المساواة بين الرجل الأبيض والملونين 0[1]

قال أصحاب نضرة النعيم :

أصالة الفكر الأخلاقي عند المسلمين:

من الناس من يظن- وبعض الظن إثم- أنه لا يوجد فكر أخلاقي عند المسلمين، ومنهم من يجعل الفكر الفلسفي شاملا للفكر الأخلاقي في التراث الإسلامي، ومنهم من ينظر إلى الفكر الصوفي على أنه الفكر الأخلاقي المعتمد للمسلمين.

إن هذه الأطروحات المختلفة لا تلبث أن تتهاوى أمام حقيقة ناصعة البياض، وهي أن الفكر الأخلاقي قد وجدت أسبابه ودواعيه منذ تلك اللحظة التي أمر فيها الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم بمكارم الأخلاق، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه قد تقرر عند العلماء أنه لا يوجد فكر ديني دون أن يكون هناك فكر أخلاقي انطلاقا من أن الفكر الديني هو الذي يحدد الإطار العام لأفكار معتنقيه، ويجيب عن التساؤلات الإنسانية الكبرى مثل خلق الإنسان والتدبر في نعم الله وآلائه، أما الفكر الخلقي فإنه يحدد أنماط السلوك التي يمارسها الإنسان في هذه الحياة، ومن المعروف أن الإسلام عقيدة وشريعة؛ فالعقيدة تتضمن الفكر والشريعة تتضمن أنماط السلوك تجاه المولى- عز وجل- كما في العبادات، أو تجاه النفس كما في العفة والطهر ونحوها، أو تجاه الآخرين كما في البر والصدقة والإيثار ونحو ذلك.

[1] موسوعة النظم 1 ص 29

لقد وجد الفكر الأخلاقي عند المسلمين طريقة للتأثير على الفكر الأخلاقي على المستوى العالمي بوجه عام والفكر الغربي بوجه خاص، ولا يزال هذا الفكر مسيطرا على سلوك المسلمين في الحاضر، ويعمل على صياغة حياتهم في المستقبل، ولم يكن الأمر كذلك إلا لكون هذا الفكر الإسلامي فكرا كونيا يعالج قضايا الحياة الإنسانية من منظور يسمو على النواحي القومية والعرقية والإقليمية، وما ذلك إلّا لأن الإسلام الذي ينبعث منه هذا الفكر هو دين كوني وشمولي من ناحية، ولأن ممارسة هذا التفكير في ظل الإسلام، وانطلاقا من القيم والثوابت الإسلامية تجعل هذا الفكر بالفعل فكرا عالميا أو إنسانيا، يؤمن به من يؤمن على هذا الأساس، أو ينكره على هذا الأساس من ناحية أخرى.[1]

وبعد هذا الكلام الرايق فالناظر في الأخلاق الأخرى يلحظ الفرق الواضح والجذري بينها وبين الأخلاق الإسلامية ، فالأخلاق الإسلامية لها مصدرية تستمد منها الأمر وهذه المصدرية هي القرآن والسنة فبهما تستمد الأخلاق الإسلامية القوة وبهذه المصدرية أصبحت الأخلاق الإسلامية شاملة وكاملة وصالحة لكل زمان ومكان ، فالأخلاق الإسلامية ليست تأويلات فلاسفة الغرب وأساطينه ، وليست هي من تخرصات الغرب وتفكيره ، إن مصدرية الأخلاق دليل واضح على بقائها وخلودها وقوتها ، إن الأخلاق الإسلامية أثبتت للعالم أنها أخلاق عالية سامية ليست نفعية ولا وقتية مؤقتة بوقت وزمن إنها منذ أن أرسى معالمها القرآن وشرحتها سنة العدنان عليه الصلاة والسلام .

ومما يدل على ذلك ماذكر عن هذا الموضوع حيث يقول صاحب الموسوعة في الأخلاق:

[1] نضرة النعيم 1 ص 67

خصائص الأخلاق الإسلامية:

لأخلاقنا الإسلامية خصائص مميزة تنفرد بها، وتجعلها ذات شخصية مستقلة، وطبيعة خاصة.

فهي أخلاق تستمد مصدرها من كتاب الله تعالى، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وما دامت أخلاقنا الإسلامية تقوم على القرآن والسنة، فهي بذلك تتسم بالشمول، والصلاحية للتطبيق في كل زمان ومكان، كما أنها تتسم بأنها قائمة على الإقناع العقلي والوجداني (العاطفي) معاً، كما أنها تقوم على المسؤولية، فللمسؤولية في أخلاق المسلم جانبان: شخصي وجماعي معاً، كما أنها تحكم على الأعمال ظاهراً وباطناً، فالرقابة الذاتية لها أثرها الفعال في أخلاق المسلم، وهي في النهاية تجعل الجزاء العادل لكل من الأخيار والأشرار في الدنيا والآخرة.

أولاً: الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر:

الأخلاق الإسلامية تعتمد على كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، فهي ربانية الهدف والغاية، وعلى هذا فهي بعيدة كل البعد عن الرأي البشري، والنظام الوضعي، والفكر الفلسفي ،وما دامت الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر فهي تتسم بسمة الخلود والصدق والصحة، وكيف لا؟ والله تعالى يقول: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [الحجر: 9] ...

ثانياً: الشمول والتكامل:

من خصائص الأخلاق الإسلامية: إنها شاملة، ومتكاملة، وهي خاصية منبثقة من الخاصية الأولى، وهي الربانية، فالإنسان لأنه محدود الكينونة في الزمان والمكان، والعلم والتجربة، كما أنه محكوم بضعفه وميله وشهوته ورغبته، وقصوره وجهله،

لذلك كان من المستحيل أن تكون الأخلاق الوضعية للبشر شاملة وعالمية، فأما حين يتولى الله سبحانه وتعالى ذلك كله، فإن التصور العقائدي، وكذلك المنهج الحياتي للإنسان يجيئان بكل ما يعتور الصبغة البشرية من القصور والنقص، وهكذا كان الشمول خاصية من خصائص الأخلاق الإسلامية

ثالثاً: الصلاحية العامة لكل زمان ومكان:

أخلاقنا الإسلامية ربانية المصدر، وتمتاز بالشمول، ولما كانت كذلك فهي صالح لجميع الناس في كل العصور، وفي جميع الأماكن، نظراً لما تتميز به من اسهولة واليسر، وعدم المشقة، ورفع الحرج عن الناس، وعدم تكليفهم بما لا يطاق.

قال تعالى: يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [البقرة: 185].

قال عز وجل: يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا [النساء: 28] ...

رابعاً: الإقناع العقلي والوجداني:

العقل السليم يقنع بما أتت به الشريعة الإسلامية من نظم أخلاقية متميزة ومستقلة عن غيرها، من النظم الأخلاقية التي وضعها المفكرون والفلاسفة على حسب البيئة التي يعيشون فيها، أو على حسب أهوائهم.

كذلك فإن الجانب الوجداني (العاطفي) والذي محله القلب على قناعة تامة بأصول الأخلاق الإسلامية. إن أخلاقنا الإسلامية بها يقنع العقل السليم، ويرضى بها القلب.

فالعقل السليم، والقلب النير عندما يعلم أن الأخلاق الإسلامية تنهى عن: الكذب، والغيبة، والنميمة، وقول الزور، والظلم، والشح، والعدوان، والمنكر بكل أساليبه يكون على قناعة بهذا الخلق الرباني المتميز والمستقل عن غيره

خامساً: المسؤولية:

الأخلاق الإسلامية تجعل الإنسان مسؤولاً عما يصدر منه في كل جوانب الحياة، سواء كانت هذه المسؤولية مسؤولية شخصية، أم مسؤولية جماعية، ولا تجعله اتكالياً لا يأبه بما يدور حوله من أشياء، وهذه خاصية من خصائص أخلاقنا انفردت بها الشريعة الغراء.

ونعني بالمسؤولية الشخصية: إن الإنسان مسؤول عما يصدر منه عن نفسه إن كان خيراً فخيراً، وإن كان شراً فشراً، وفي هذا الصدد يقول الله تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ [فصلت: 46].

ويقول سبحانه: كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ [الطور: 21].

ويقول عز وجل: وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [الإسراء: 15].

ويقول تعالى: وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ [النساء: 111].

ويقول تعالى: السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً [الإسراء: 26].

فهذه الآيات وغيرها تبين لنا مدى المسؤولية التي تقع على عاتق الإنسان عما يصدره منه عنه نفسه.

سادساً: العبرة بالظاهر والباطن من الأعمال معاً:

أخلاقنا الإسلامية لا تكتفي بالظاهر من الأعمال، ولا تحكم عليه بالخير والشر بمقتضى الظاهر فقط، بل يمتد الحكم ليشمل النوايا والمقاصد، وهي أمور باطنية، فالعبرة إذاً بالنية، والنية هي مدار التكليف، وعلى ذلك ننظر إلى نية الإنسان حتى نحكم على عمله الظاهر بالإيجاب أو بالسلب.

سابعاً: الرقابة الدينية:

الرقابة: تعني مراقبة المسلم لجانب مولاه سبحانه في جميع أمور الحياة

وعلى هذا فإن الرقابة في أخلاقنا الإسلامية لها مدلولها المستقل والمختلف عن الرقابة في مصادر الأخلاق الأخرى، حيث تكون رقابة خارجية من الغير تتمثل في رقابة السلطة، والأفراد

أما الرقابة في الإسلام فهي رقابة ذاتية في المقام الأول، وهي رقابة نابعة من التربية الإسلامية الصحيحة، ومن إيقاظ الضمير، فإذا كان المسلم يعلم أن الله معه، وأنه مطلع على حركاته وسكناته، فإنه يكون رقيباً على نفسه ولا يحتاج إلى رقابة الغير عليه، يقول تعالى: وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ [الحديد: 4]، ويقول سبحانه: يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى [طه: 7]، ويقول عز وجل: إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا [النساء: 1]، فإذا قرأ المسلم هذه الآيات وعرف معناها فإنه حينئذ يتيقن أنه إذا تمكن من الإفلات من رقابة السلطة، فإنه لن يتمكن من الإفلات من رقابة الله، وهذا في حد ذاته أكبر ضمان لعدم الانحراف والانسياق إلى الأخلاق المذمومة

ثامناً: تراعى التدرج:

التدرج في إلقاء الأوامر، بتقديم الأهم على المهم، واجتناب الأفحش، والسهولة واليسر ... وهو أهم ما يميز أخلاقنا الإسلامية، فهي لا تطلب من الناس العمل بما لا يطاق، ولا بالمستحيل.

تاسعاً: الجزاء على الخير والشر:

الجزاء من جنس العمل – كما يقال – وأخلاق الإسلام تعطي الجزاء لكل من يعمل خيراً، أو يقترف شراً. هذا الجزاء قد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة.

فالأخيار من الناس: جزاؤهم عظيم في الدنيا والآخرة:

أما جزاؤهم في الآخرة: فتشير إليه آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة: 72].

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ [البينة: 7 – 8].

وأما جزاؤهم في الدنيا: فتشير إليه آيات منها:

قوله تعالى وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ

– قوله تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ...

والأشرار من الناس: جزاؤهم عظيم في الدنيا والآخرة

أما جزاؤهم في الآخرة: فتشير إليه آيات كثيرة منها

– قوله تعالى: فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ...

وأما جزاؤهم في الدنيا: فتشير إليه آيات منها:

قوله تعالى: وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ [النحل: 112][1].

وهذا الكلام المفيد يدل على أن الأخلاق الإسلامية سامية ورفيعة ، ولو اجتمع أذكياء العالم على أن يصوغوا أخلاقا تسير عليها الأمم ويحتذون حذوها، لما استطاعوا أبدا ، وذلك لأنها تخرصات في بادئ الأمر ومنتهاه إلى البشر أصحاب العقول القاصرة العقول التي تعصف بها الأهواء تارة والاختلاف تارة أخرى ، فالناظر إلى خصائص الأخلاق الإسلامية يدرك فوائد جمة ، منها يعلم أن الخير كل الخير في اتباع شريعة الله الداعية والآمرة أن يتخلق الناس بهذه الأخلاق الحميدة ، ويدرك الإنسان عظمة الدين الإسلامي وكيف أنه دين عبادات وسلوك وأخلاق وبهذا يتميز الإسلام عن كثير من الديانات المحرفة التي ابتعدت ابتعادا وبانت بونا شاسعا بين الدين والأخلاق بينما الإسلام يرتبط ارتباطا كاملا بالأخلاق ، ولاغرو أن تجد كثيرا من أحاديث الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام تبتدأ بمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ليدرك العالم الارتباط الوثيق بين الأخلاق والعقيدة ، ومن الأمور أيضا الشمول فلا تكاد تجد عند أصحاب النظريا الخلقية المخترعة من عقولهم القاصرة جزءا من هذا الشمول فالأخلاق الإسلامية شاملة كاملة ، والشمول الذي فيها يشمل كثيرا من الأشكال المختلفة فالناظر في الحياة العامة المختلفة يجد الأخلاق الإسلامية تتغلل في المجتمع تغلغلا عظيما ففي شؤون الأسرة هناك تتضح الأخلاق اتضاحا كاملا ،وفي شؤون الجيران وذوي القربي يجد المرء المسلم الوصايا القرآنية ووصايا النبي صلى الله عليه وسلم بينة واضحة بهذا الصدد ، ولو تأمل الإنسان

[1] موسوعة الاخلاق الإسلامية 1 ص 11-13

علاقته في البيع والشراء وسائر المعاملات تلوح له سماء الأخلاق مذكرة له بأن يتسامح في بيعه وشرائه ومعاملاته عموما وأن يكون العفو صاحبه وقائده ،والناظر في قضية مهمة وهي قضية الجزاء الأخروي في الأخلاق يدرك ويتضح له البون الشاسع بين الأخلاق الإسلامية وبين أخلاق الغرب التي تقوم على مبدأ المنفعة فإذا زالت المنفعة زالت الأخلاق وللأسف لأنها أخلاق وقتية ، أما المؤمن الذي يدفعه للأخلاق مع العالمين ليس حظوة دنيوية ولا مناقصة تجارية إن المسلم المتمسك بدينه لا يدفعه للأخلاق كلها من تحمل للأذى وصبر ومصابرة وبذل ومعروف وشجاعة وغيرها من الورود الجميلة في بستان الأخلاق إلا طلب رضا الله تبارك وتعالى والسعي لنيل مرضاته وأن يرافق الحبيب المصطفى في الجنة ، هذا الشعور الداخلي العميق هو الذي يترجم كل هذه المعاني العظيمة والصفات النبيلة ،ومعين الأخلاق في الحياة معين لا ينقطع وعينه وماؤه لا يغوران أبدا ، تلك هي أخلاق الإسلام التي أدخلت فئاما من العالمين هذا الدين القويم .

المبحث السادس :الأخلاق بين الجبلة والتطبع :

الخلق كما عرفناه سابقا ، جبلة في الإنسان ، لكن هناك كثيرا من الأخلاق يتعلمها الإنسان وستفيد من خلال حياته وتجاربه منها فيتشبع بالخلق سواء كان خلقا حسنا أم غير ذلك ، ولذا وجب على المسلم ان يتحلى دائما بالأخلاق الحميدة الحسنة لأن الإنسان عنده معيار خاص به يستطيع أن يلزم نفسه بالخلق الحسن وكبح جماح النفس عن مخالفته ويستطيع في الجانب الآخر أن يعطي لنفسه كل ما تهواه وتطلبه ويفلت لها الزمام فلا تكاد تستقيم على حال ، وهذه القضية قد يتذرع بها أرباب الفساد في قولهم أنهم مجبولون على الأخلاق السيئة ، والرد عليهم سهل في ذلك ، وهو لو كان الامر كذلك فهل الإنسان مجبول على أن يرمي نفسه من شاهق وأن يشرب السم وأن يصارع الغضنفر ! إن الإنسان بنفسه وبالاختيار الذي

أعطاه الله إياه يستطيع أن يلزم عتبة الأخلاق الحسنة ويجتهد في ذلك ولزم نفسه به فالحلم بالتحلم ، وإلا كيف كان بعض الصحابة في جاهليتهم وكيف كانوا جفاة غلاظ ، فما لبثوا حتى صاروا من أرحم الخلق بالخلق وصاروا ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر.

قال الإمام ابن عثيمين رحمه الله :

الأخلاق بين الطبع والتطبع

وكما يكون الخُلقُ طبيعة, فإنه قد يكون كسباً, بمعنى أن الإنسان كما يكون مطبوعاً على الخلق الحسن الجميل, فإنه أيضاً يمكن أن يتخلق بالأخلاق الحسنة عن طريق الكسب والمرونة.

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: "إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم والأناة" قال يا رسول الله, أهما خلقان تخلقت بهما, أم جبلني الله عليهما, قال: "بل جبلك الله عليهما". فقال: "الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما ورسوله"[1]

فهذا دليل على أن الأخلاق الحميدة الفاضلة تكون طبعاً وتكون تطبعا, ولكن الطبع بلا شك أحسن من التطبع, لأن الخلق الحسن إذا كان طبيعياً صار سجية للإنسان وطبيعة له, لا يحتاج في ممارسته إلى تكلف, ولا يحتاج في استدعائه إلى عناء ومشقة, ولكن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء, ومن حُرم هذا – أي حُرم الخلق عن سبيل الطبع – فإنه يمكنه أن يناله

[1] صحيح مسلم باب الأمر بالإيمان 1 ص 48

عن سبيل التطبع, وذلك بالمرونة, والممارسة لأن حسن الخلق بالطبع لا يزول عن الإنسان لكن حسن الخلق بالتطبع قد يفوت الإنسان في مواطن كثيرة, لأنه يحتاج إلى ممارسة وإلى معاناة وإلى رياضة ومجاهدة, وإلى تذكر ذلك عند حدوث كل ما يثير الإنسان. ولهذا جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه الصلاة والسلام, فقال: يا رسول الله أوصني قال: "لا تغضب". فردد مراراً. قال: "لا تغضب"[1]

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: "ليس الشديد بالصرعة, إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" [2]

والصرعة: والذي يصرع الناس كهُمزة, ولُمزة. فهمزة الذي يهمز الناس, ولمزة: الذي يلمز الناس بالعيون.

فليس الشديد هو الذي يصرع الناس ويغلبهم: "إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" يتحكم فيها ويملكها في مواطن الغضب, وملك الإنسان نفسه عند الغضب يعتبر من محاسن الأخلاق, فإذا غضبت فلا تنفذ الغضب, ولكن استعذ بالله من الشيطان الرجيم, وإذا كنت قائماً فاجلس, وإذا كنت جالساً فاضطجع, وإذا ازداد الغضب فتوضأ حتى يزول عنك.

ويستطيع الإنسان اكتساب مكارم الأخلاق, وذلك عن طريق الممارسة, والمجاهدة, والتمرين فيكون الإنسان حسن الخلق لأمور منها:

[1] صحيح البخاري 8 ص 28 باب الحذر من الغضب

[2] صحيح مسلم 4 ص 2014 باب من يملك نفسه عند الغضب

أولاً: أن ينظر في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم: ينظر النصوص الدالة على مدح ذلك الخلق العظيم الذي يريد أن يتخلق به. فالمؤمن إذا رأى النصوص تمدح شيئاً من الأخلاق أو الأفعال, فإنه سوف يقوم به.

والنبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى ذلك في قوله: "إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك: إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وأما أن تجد منه ريحاً طيبة ونافح الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة"[1]

ثانياً: أن يصاحب من عرفوا بحسن الأخلاق, والبعد عن مساوئ الأخلاق وسفاسف الأعمال حتى يجعل من هذه الصحبة مدرسة يستعينُ بها على حسن الخلق فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل".[2]

ثالثاً : أن يتأمل الإنسان ماذا يترتب على سوء خلقه: فسيئ الخلق ممقوت سيئ الخلق مهجور سيئ الخلق مذكور بالذكر القبيح فإذا علم الإنسان أن سوء الخلق يفضي به إلى هذا فإنه يبتعد عنه.

رابعاً: أن يستحضر الإنسان دائماً صورة خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أنه كان يتواضع للخلق, ويحلم عليهم, ويعفو عنهم ويصبر على أذاهم, فإذا استحضر الإنسان أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وأنه خير البشر وأفضل من عبد

[1] صحيح البخاري3 ص 63 باب في العطار وبيع المسك

[2] سنن الترمذي 4 ص 589 حديث رقم 2378 قال الترمذي هذا حديث حسن غريب .

الله تعالى, هانت على الإنسان نفسه وانكسرت صولة الكبر فيها فكان ذلك داعياً إلى حسن الخلق. [1]

وهذا الكلام من ابن عثيمين رحمه الله يؤكد على أن النفس قابلة للتغير للأفضل والأحسن وأن بإمكانها أن تترقى في مراقي الأخلاق إلى أن تصل لرتبة عظيمة جليلة وهذا يحتاج منها لصبر ومصابرة وحتى تألف الأمر وتحبه فيكون لذة لها وسرورا وسعادة وهناء ، يصل الإنسان لمرحلة يكون تعامله بالخلق فيها ألذ له من الطهعام على الجوع والشرب على الظمأ .

قال ابن حزم عن هذه القضية :

مداواة النُّفُوس وَإِصْلَاح الْأَخْلَاق لَذَّة الْعَاقِل بتمييزه وَلَذَّة الْعَالم بِعِلْمِهِ وَلَذَّة الْحَكِيم بِحِكْمَتِهِ وَلَذَّة الْمُجْتَهد لله عز وَجل بِاجْتِهَادِهِ أعظم من لَذَّة الْآكِل بِأَكْلِهِ والشارب بشربه والواطئ بِوَطْئِهِ والكاسب بِكَسْبِهِ واللاعب بلعبه والآمر بأَمْره وبرهان ذَلِك أَن الْحَكِيم والعاقل والعالم وَالْعَامِل واجدون لسَائِر اللَّذَّات الَّتِي سمينا كَمَا يجدهَا المنهمك فِيهَا ويحسونها كَمَا يحسها الْمقبل عَلَيْهَا وَقد تركوها وأعرضوا عَنْهَا وآثروا طلب الْفَضَائِل عَلَيْهَا وَإِنَّمَا يحكم فِي الشَّيْئَيْنِ من عرفهَا لَا من عرف أَحدهمَا وَلم يعرف الآخر إِذا تعقبت الْأُمُور كلهَا فَسدتْ عَلَيْك وانتهيت فِي آخر فكرتك باضمحلال جَمِيع أَحْوَال الدُّنْيَا إِلَى أَن الْحَقِيقَة إِنَّمَا هِيَ الْعَمَل للآخرة فَقَط لِأَن كل أمل ظَفرت بِهِ فعقباه حزن إِمَّا بذهابه عَنْك وَإِمَّا بذهابك عَنهُ وَلَا بُد من أحد هذَيْن الشَّيْئَيْنِ إِلَّا الْعَمَل لله عز وَجل فعقباه على كل حَال سرُور فِي عَاجل وآجل أما العاجل فقلة الْهم بِمَا يهتم بِهِ النَّاس وَإِنَّك بِهِ مُعظم من الصّديق والعدو وَأما فِي الآجل فالجنة تطلبت غَرضا يَسْتَوِي النَّاس كلهم فِي استحسانه وَفِي طلبه فَلم أَجِدهُ

[1] مكارم الاخلاق لابن عثمين 13-32

إِلَّا وَاحِدًا وَهُوَ طرد الْهم فَلَمَّا تدبرته علمت أَن النَّاس كلهم لم يستووا فِي استحسانه فَقَط وَلَا فِي طلبه فَقَط وَلَكِن رَأَيْتهمْ على اخْتِلَاف أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وإراداتهم لَا يتحركون حَرَكَة أصلا إِلَّا فِيمَا يرجون بِهِ طرد الْهم وَلَا ينطقون بِكَلِمَة أصلا إِلَّا فِيمَا يعانون بِهِ إزاحته عَن أنفسهم فَمن مُخطئ وَجه سَبيله وَمن مقارب للخطأ وَمن مُصِيب وَهُوَ الْأَقَل من النَّاس فِي الْأَقَل من أُمُوره فطرد الْهم مَذْهَب قد اتّفقت الْأُمَم كلهَا مذ خلق الله تَعَالَى الْعَالم إِلَى أَن يتناهى عَالم الِابْتِدَاء ويعاقبه عَالم الْحساب على أَن لَا يعتمدوا بسعيهم شَيْئا سواهُ وكل غَرَض غَيره فَفِي النَّاس من لَا يستحسنه إِذْ فِي النَّاس من لَا دين لَهُ فَلَا يعْمل للآخرة وَفِي النَّاس من أهل الشَّرّ من لَا يُرِيد الْخَيْر وَلَا الْأَمْن وَلَا الْحق وَفِي النَّاس من يُؤثر الخمول بهواه وإرادته على بعد الصيت وَفِي النَّاس من لَا يُرِيد المَال ويؤثر عَدمه على وجوده ككثير من الْأَنْبِيَاء عَلَيْهِم السَّلَام،

وَوجدت للْعَمَل للآخرة سالما من كل عيب خَالِصا من كل كدر موصلا إِلَى طرد الْهم على الْحَقِيقَة وَوجدت الْعَامِل للآخرة إِن امتحن

بمكروه فِي تِلْكَ السَّبِيل لم يهتم بل يسر إِذْ رجاؤه فِي عاقبه مَا ينَال بِهِ عون لَهُ على مَا يطْلب وزايد فِي الْغَرَض الَّذِي إِيَّاه يقْصد وَوَجَدته إِن عاقه عَمَّا هُوَ بسبيله عائق لم يهتم إِذْ لَيْسَ مؤاخذا بذلك فَهُوَ غير مُؤثر فِي مَا يطْلب ورأيته إِن قصد بالأذى سر وَإِن نكبته نكبة سر وَإِن تَعب فِيمَا سلك فِيهِ سر فَهُوَ فِي سرُور مُتَّصِل أبدا وَغَيره بِخِلَاف ذَلِك أبدا فَاعْلَم أَنه مَطْلُوب وَاحِد وَهُوَ طرد الْهم وَلَيْسَ إِلَيْهِ إِلَّا طَرِيق وَاحِد وَهُوَ الْعَمَل لله تَعَالَى فَمَا عدا هَذَا فضلال وسخف[1]

وهذا الكلام من ابن حزم في أن النفوس في بادئ الأمر تتنكر للأخلاق ثم ما تلبث إلا أن تكون الأخلاق لذة لها ولا تستقيم حياته بدونها ، وهذا الأمر لا يحصل إلا

[1] الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص 13-15

إذا جعل الإنسان قصده رضا الله والمنفعة الأخروية وبذلك تطيب له الحياة ويستقيم له الأمر وترتقي النفس مع الخلق رقيا عاليا ويتحدان اتحادا أبديا فتجد الشخص قد طبع وجبل على الخلق الحسن من دون تكلف من أو تصنع وتلك غابة بعيدة جليلة تحتاج من الإنسان حتى يبلغها لصبر ومصابرة ومجاهدة .

قال الماوردي في كلام نفيس عن الأخلاق والأدب :

اعْلَمْ أَنَّ النَّفْسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى شِيَمٍ مُهْمَلَةٍ، وَأَخْلَاقٍ مُرْسَلَةٍ، لَا يَسْتَغْنِي مَحْمُودُهَا عَنْ التَّأْدِيبِ، وَلَا يَكْتَفِي بِالْمُرْضِي مِنْهَا عَنْ التَّهْذِيبِ؛ لِأَنَّ لِمَحْمُودِهَا أَضْدَادًا مُقَابِلَةً يُسْعِدُهَا هَوًى مُطَاعٌ وَشَهْوَةٌ غَالِبَةٌ، فَإِنْ أَغْفَلَ تَأْدِيبَهَا تَفْوِيضًا إلَى الْعَقْلِ أَوْ تَوَكُّلًا عَلَى أَنْ تَنْقَادَ إلَى الْأَحْسَنِ بِالطَّبْعِ أَعْدَمَهُ التَّفْوِيضُ دَرَكَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَأَعْقَبَهُ التَّوَكُّلُ نَدَمَ الْخَائِبِينَ، فَصَارَ مِنْ الْأَدَبِ عَاطِلًا، وَفِي صُورَةِ الْجَهْلِ دَاخِلًا؛ لِأَنَّ الْأَدَبَ مُكْتَسَبٌ بِالتَّجْرِبَةِ، أَوْ مُسْتَحْسَنٌ بِالْعَادَةِ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ مُوَاضَعَةٌ.

وَذَلِكَ لَا يُنَالُ بِتَوْقِيفِ الْعَقْلِ وَلَا بِالِانْقِيَادِ لِلطَّبْعِ حَتَّى يُكْتَسَبَ بِالتَّجْرِبَةِ وَالْمُعَانَاةِ، وَيُسْتَفَادَ بِالدُّرْبَةِ وَالْمُعَاطَاةِ. ثُمَّ يَكُونُ الْعَقْلُ عَلَيْهِ قَيِّمًا وَزَكِيُّ الطَّبْعِ إلَيْهِ مُسَلِّمًا. وَلَوْ كَانَ الْعَقْلُ مُغْنِيًا عَنْ الْأَدَبِ لَكَانَ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ أَدَبِهِ مُسْتَغْنِينَ، وَبِعُقُولِهِمْ مُكْتَفِينَ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»[1] . وَقِيلَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ – عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ السَّلَامُ –: مَنْ أَدَّبَكَ؟ قَالَ: مَا أَدَّبَنِي أَحَدٌ وَلَكِنِّي رَأَيْتُ جَهْلَ الْجَاهِلِ فَجَانَبْتُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: إنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنَهَا وَصْلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَكُمْ، فَحَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَتَّصِلَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِخُلُقٍ مِنْهَا.

[1] مجمع الزوائ 9 ص 19

وَقَالَ أَزْدَشِيرُ بْنُ بَابَكَ: مِنْ فَضِيلَةِ الْأَدَبِ أَنَّهُ مَمْدُوحٌ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَمُتَزَيَّنٌ بِهِ فِي كُلِّ مَكَان، وَبَاقٍ ذِكْرُهُ عَلَى أَيَّامِ الزَّمَانِ. وَقَالَ مَهْبُودٌ: شُبِّهَ الْعَالِمُ الشَّرِيفُ الْقَدِيمُ الْأَدَبِ بِالْبُنْيَانِ الْخَرَابِ الَّذِي كُلَّمَا عَلَا سُمْكُهُ كَانَ أَشَدَّ لِوَحْشَتِهِ وَبِالنَّهْرِ الْيَابِسِ الَّذِي كُلَّمَا كَانَ أَعْرَضَ وَأَعْمَقَ كَانَ أَشَدَّ لِوُعُورَتِهِ، وَبِالْأَرْضِ الْجَيِّدَةِ الْمُعَطَّلَةِ الَّتِي كُلَّمَا طَالَ خَرَابُهَا ازْدَادَ نَبَاتُهَا غَيْرَ الْمُنْتَفَعِ بِهِ الْتِفَافًا وَصَارَ لِلْهَوَامِّ مَسْكَنًا.

وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: مَا نَحْنُ إِلَى مَا نَتَقَوَّى بِهِ عَلَى حَوَاسِّنَا مِنْ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ بِأَحْوَجِ مِنَّا إِلَى الْأَدَبِ الَّذِي هُوَ لِقَاحُ عُقُولِنَا، فَإِنَّ الْحَبَّةَ الْمَدْفُونَةَ فِي الثَّرَى لَا تَقْدِرُ أَنْ تَطْلُعَ زَهْرَتُهَا وَنَضَارَتُهَا إِلَّا بِالْمَاءِ الَّذِي يَعُودُ إِلَيْهَا مِنْ مُسْتَوْدَعِهَا. وَحَكَى الْأَصْمَعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ الْعَقْلُ بِلَا أَدَبٍ كَالشَّجَرِ الْعَاقِرِ، وَمَعَ الْأَدَبِ دِعَامَةٌ أَيَّدَ اللَّهُ بِهَا الْأَلْبَابَ، وَحِلْيَةٌ زَيَّنَ اللَّهُ بِهَا عَوَاطِلَ الْأَحْسَابِ، فَالْعَاقِلُ لَا يَسْتَغْنِي وَإِنْ صَحَّتْ غَرِيزَتُهُ، عَنْ الْأَدَبِ الْمُخْرِجِ زَهْرَتُهُ، كَمَا لَا تَسْتَغْنِي الْأَرْضُ وَإِنْ عَذُبَتْ تُرْبَتُهَا عَنْ الْمَاءِ الْمُخْرِجِ ثَمَرَتُهَا.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْأَدَبُ صُورَةُ الْعَقْلِ فَصَوِّرْ عَقْلَك كَيْفَ شِئْتَ. وَقَالَ آخَرُ: الْعَقْلُ بِلَا أَدَبٍ كَالشَّجَرِ الْعَاقِرِ، وَمَعَ الْأَدَبِ كَالشَّجَرِ الْمُثْمِرِ. وَقِيلَ الْأَدَبُ أَحَدُ الْمَنْصِبَيْنِ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءُ: الْفَضْلُ بِالْعَقْلِ وَالْأَدَبِ، لَا بِالْأَصْلِ وَالْحَسَبِ؛ لِأَنَّ مَنْ سَاءَ أَدَبُهُ ضَاعَ نَسَبُهُ، وَمَنْ قَلَّ عَقْلُهُ ضَلَّ أَصْلُهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءُ: ذَكِّ قَلْبَك بِالْأَدَبِ كَمَا تُذَكَّى النَّارُ بِالْحَطَبِ، وَاتَّخِذْ الْأَدَبَ غُنْمًا، وَالْحِرْصَ عَلَيْهِ حَظًّا، يَرْتَجِيكَ رَاغِبٌ، وَيَخَافُ صَوْلَتَك رَاهِبٌ، وَيُؤَمِّلُ نَفْعَكَ، وَيُرْجَى عَدْلُك.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْأَدَبُ وَسِيلَةٌ إِلَى كُلِّ فَضِيلَةٍ، وَذَرِيعَةٌ إِلَى كُلِّ شَرِيعَةٍ. وَقَالَ بَعْضُ الْفُصَحَاءِ: الْأَدَبُ يَسْتُرُ قَبِيحَ النَّسَبِ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءُ فِيهِ:

فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِثْلَ الْعُقُولِ ... وَلَا اكْتَسَبَ النَّاسُ مِثْلَ الْأَدَبْ

وَمَا كَرَمُ الْمَرْءِ إِلَّا التُّقَى ... وَلَا حَسَبُ الْمَرْءِ إِلَّا النَّسَبْ

وَفِي الْعِلْمِ زَيْنٌ لِأَهْلِ الْحِجَا ... وَآفَةُ ذِي الْحِلْمِ طَيْشُ الْغَضَبْ

وَأَنْشَدَ الْأَصْمَعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ –:

وَإِنْ يَكُ الْعَقْلُ مَوْلُودًا فَلَسْتُ أَرَى ... ذَا الْعَقْلِ مُسْتَغْنِيًا عَنْ حَادِثِ الْأَدَبْ

إِنِّي رَأَيْتُهُمَا كَالْمَاءِ مُخْتَلِطًا ... بِالتُّرْبِ تَظْهَرُ مِنْهُ زَهْرَةُ الْعُشَبْ

وَكُلُّ مَنْ أَخْطَأَتْهُ فِي مَوَالِدِهِ ... غَرِيزَةُ الْعَقْلِ حَاكَى الْبُهْمَ فِي الْحَسَبْ .[1]

ولاشك أن الأدب جماع الأخلاق النبيلة ولذا فإن أئمة السنة عقدوا أبوابا في كتب السنة باب الأدب قبل العلم ، لما فيه من الأهمية البالغة التي يجب على كل مؤمن أن يتأدب به ، والشريعة أتت بالآداب كلها فهي مجمع الآداب والأخلاق النبيلة فالأدب صفة المرسلين ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

ومن المسائل المهمة ضرب الأمثلة على بعض الأخلاق الإسلامية ، حتى يتعرف عليها المسلم ويعيها ويتبصر بها وتكون نبراسا له في الطريق وقوة يعتمد عليها وزادا له في مسيره في هذه الحياة ، ويعد ذكر الشلبي لنماذج من الأخلاق الإسلامية النبيلة تميزا له في موضوع الأخلاق ومن خصائصه أنه ضرب مجموعة من الأمثلة في هذا الشأن المهم ، قال صاحب الموسوعة :

- المسلم لايسخر من الناس .
- المسلم لا يأخذ بالظن ولا يتجسس 0
- الإسلام يدعو للاتحاد 0

[1] أدب الدنيا والدين ص 231-232

. الإسلام يدعو لآداء الأمانة والوفاء بالعهد 0

. الإسلام يحذر من الغش ومن تطفيف الكيل 0

. الإسلام ينهي عن الحسد 0

. الإسلام ينفر من القسوة على اليتيم ومن أكل ماله.

الإسلام يأمر بالعدل وينفرمن الظلم 0

الإسلام ينفر من الرشوة 0

الإسلام ينفر من شهادة الزور.

الإسلام يوصي بالجار والإسلام يدعو للتعاون والإيثار.

الإسلام يقول بالمساواة. [1]

وفي ذكر الشلبي لهذه الأخلاق العظيمة وربطها بأن الإسلام يوصي بها والإسلام يرشد إليها تذكير بالواجب العظيم على المؤمنين جميعا في كل أقطار الدنيا ،

[1] موسوعة النظم 6 ص 306

الخاتمة

إن الأخلاق هي صورة الإسلام الجميلة التي من الواجب أن تصل للعالمين عبر رسل السلام ، وكل الأخلاق التي ذكرت والتي لم تذكر توحي بالرحمة التامة لجميع البشر وتوحي أيضا بأن الإسلام دين عظيم لا يجازي بالسيئة السيئة ولكنه يقدم العفو والصفح ، وقد أجاد الشلبي في ذكره لهذه الأخلاق وهي أمهات الأخلاق فالعدل مثلا من أعظم الأخلاق التي دانت بها البشرية والتي أجمع البشر على محبته والعمل به وضده الظلم فلقد حرمته كل الشرائع السموية غير المحرفة ، والإسلام يأمر الإنسان بالعدل حتى مع العدو والمخالف تأكيدا على هذا المبدأ العظيم الذي لا يجوز للمسلم مخالفته لا في سلم ولا في حرب ولا قوة ولا ضعف ، ومن المبادئ العظيمة التي تري للعالم الصورة الجميلة ، مبدأ وخلق الأمانة ذلكم الخلق العظيم الذي كان حامل لوائه قبل البعثة والنبوة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى سماه العرب المشركين بالصادق الأمين وكان بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام مثالا عاليا لتحمل الأمانات قبل النبوة والبعثة ، وبعد البعثة جعلها من أولويات الرسالة الخاتمة ، وأنه لا يجوز بأي حال من الأحوال لأهل الإسلام خيانة الأمانة حتى لو كانت من الأعداء ، تبيينا لهذه الرسالة السموية العظيمة هذه الرسالة الخاتمة التي ارتضاها الله لنا نحن بني البشر كي نسعد ونعيش بسلام وتكون الحياة في قالب جميل من الحب والتعاون الإيثار .

أبرز النتائج :

1- إن الأخلاق الإسلامية عمود أساس في تطور المجتمعات ورقيها وازدهارها

2- إن مرجعية الاخلاق الكتاب والسنة حتم عليها البقاء والاستمرارية وعدم التخبط والتزعزع

3- إن الأمة بحاجة لعودة ماسة للأخلاق وممارستها الممارسة الدقيقة في شتى الميادين

4- إن النموذج الكامل الصالح للاقتداء والاهتداء نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم

5- إن التطبع لايعني عدم القدرة على اكتساب الأخلاق الفاضلة فالحلم بالتحلم والعلم بالتعلم

أبرز التوصيات :

1- من المهم النظر في شأن الأخلاق في المؤسسات التعليمية والتربوية أنها قضية أساسية وليست ثانوية في البناء والتطور

2- إن من أدوار المؤسسات التجارية والقطاعات عامة أن تملي على موظفيها مواد متخصصة في تكريس وتعليم قضية الأخلاق وتطبعهم بها

3- واجب على ذوي العلم والبصيرة أن يوجهوا الناس عبر منبر الجمعة والمحاضرات الدينية والتوعية على وجوب الرجوع للقدوة الشاملة في الأخلاق وأن يأتسوا بالرسول صلى الله عليه وسلم في كل الميادين وعلى كافة الأصعدة .